البعد النفسي للفكر الديني المتطرف... قراءات ارتباطية

د. ناهض موسى طلفاح*
أكاديمي وباحث من العراق

* قسم الارشاد التربوي - جامعة
النهريين

يشار إلى التطرف (Extremity) بأنه الجمود العقائدي والانغلاق العقلي، وهو بهذا المعنى أسلوب مُغلق للتفكير يتسم بعدم القدرة على تقبل أية معتقدات تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة أو التسامح معها⁽¹⁾، إن التطرف يطلق على مجموعة من الأفكار الدينية والسياسية والاجتماعية، التي حاول المتطرفون عن طريقها، وعن طريق الانضواء تحت لواء الإسلام تحريف الدين عن مبادئه وأصوله والنيل من سلطته وهدمهما معاً دونما فصل أو تمييز بينهما⁽²⁾.

(1) ابن منظور، لسان العرب المحيط، تقديم الشيخ عبد الله العاليلي، بيروت، 1930، طبعة بيروت، ص230.

(2) عليان ورشدي محمد وآخرون، التطرف الديني، مطبعة وزارة الاوقاف، بغداد، ط1، 1983، ص7.

وعليه فإن التطرف هو الغلو المفرط وعدم مراعاة الوسطية، والتعبير عن أحادية النظرة، والسعي إلى فرض الذات وإحكام السيطرة بالقوة وإخضاع الآخر بواسطة الإكراه والتعسف والتسلطية، هو موقف إقصائي أناني لا مجال معه لوجود الآخر، وهو بعيد عن التوسط والاعتدال والخروج على المفاهيم والأعراف والتقاليد والسلوكيات العامة، هو سلوك غير متكيف ينذر عن كبت وتوتر وضعف وعجز عن فهم الفرد لنفسه وفهم الآخرين وتقبلهم ومجاراة الواقع.

وينماز بالجمود الفكري والاستبداد بالرأي، والتعصب، والإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين، والميل والجنوح إلى التشدد، والتعسير على الناس، وإلزامهم بما لا يلزم، مع الجهل بمراتب الأحكام، وخطط المكر وهو الحرام، ويترتب على ذلك قلب الأحكام الفقهية.

هو سلوك غير متكيف ينذر عن
كبت وتوتر وضعف وعجز عن
فهم الفرد لنفسه وفهم الآخ
ينو تقبلهم ومجاراة الواقع

أولاً: العوامل النفسية الباعثة على التطرف عند الجماعات المتطرفة

1 - التنشئة الاجتماعية Socialization بمنظوماتها الثلاثة الأسرة والمدرسة والمجتمع: إذا تلعب دوراً أساسياً في رسم السلوك السوي أو غير السوي لأفرادها، فالطفل في هذه المرحلة لم يكن خاضعاً لأية جماعة أخرى غير أسرته، ويكون فيها سهل التأثر والتشكيل، وشديد القابلية للإيحاء والتعلم، ودلت الأبحاث النفسية أن التطرف والتعصب الديني أو العنصري يحدث في فترات مبكرة من حياة الإنسان وأن تأثير الوالدين يعد العامل الأساسي في تشكيل الاتجاهات لدى الطفل بالمحاكاة، ولا يقتصر تأثير الوالد ينفي استماع الأطفال لآرائهم المتعصبة فقط، بل يساعدون أيضاً على خلق نمط الشخصية المستهدفة للتعصب وكذلك المناهج الدراسية ووسائل الإعلام والجماعات المرجعية، ودور العبادة ومقدار تغذيته السلوك التطرف⁽³⁾.

(3) محمود السيد ابو النيل، علم النفس الاجتماعي ج1، دار الهضبة العربية، 1985، بيروت، لبنان، ص 470.

2 - الثقافة الدينية المحدودة: عدم الاطلاع على أصول الدين وجوهر العقيدة والفهم الخاطيء للدين ومبادئه وأحكامه، وغياب القدوة الحسنة (النموذج) الذي يمكن الاقتداء به، والتأثر بشخصيات منحرفة فهم لا يقتدون بالعلماء الراسخين، وإنما يقتدون بمن لا علم له، وتزايد عدد الغلاة وتيارات الغلو والتكفير الذين يستخدمون الشحن العاطفي، ويحركون مشاعر وعواطف الشباب في المجتمعات الإسلامية، وما زرعه بعض المشايخ المتشددون من فكر يبد أو ينتهي برفض الآخر منجهة، ويعبّد الطريق إلى (الجنة) بأسرع وسيلة لا يحتاج معها الشباب المتحمس لإعمال الفكر من جهة أخرى، فمبايعة الأمير على السمع والطاعة هي أو لخطوة إلزامية للدخول إلى (عالم الكبار والخلود).

عدم الاطلاع على أصول الدين وجوهر العقيدة والفهم الخاطيء للدين ومبادئه وأحكامه، وغياب القدوة الحسنة (النموذج) الذي يمكن الاقتداء به، والتأثر بشخصيات منحرفة فهم لا يقتدون بالعلماء الراسخين

3 - زيادة حدة الحواجز النفسية بين القوميات والاقليات وحدة الصراع في ما بينهم، وفقدان قنوات الحوار الحضاري والتمتد، وقمع الجماعات المعارضة وتجاه لمطالب الأقليات في بعض البلدان.

4 - البطالة والفراغ وزيادة أعداد العاطلين عن العمل من الشباب ولا سيما خريجو المدارس والجامعات، مع ارتفاع مستويات الأسعار وضمنك المعيشة، مما يدفعهم إلى

التمسك بالعقيدة بشكل متطرف ملاذاً وحيداً لإنقاذهم مما يعانونه، من فقدان الطموح والأمل والرؤى الإيجابية للمستقبل.

5 - وهناك من يرى أن سبب التطرف يعود إلى اضطراب نفسي، أو أن سلوكه يعبر عن شخصية غير سوية، والمتطرف متطرف بصرف النظر عن التطرف الذي ينتهجه، أي أنه لو كان ينتمي لأي مذهب أو جماعة سوف يظهر تطرفاً بنفس القدر ونفس الكراهية للآخرين.

والمتطرف متطرف بصرف النظر عن التطرف الذي ينتهجه، أي أنه لو كان ينتمي لأي مذهب أو جماعة سوف يظهر تطرفاً بنفس القدر ونفس الكراهية للآخرين

6 - غياب دور بعض المؤسسات الدينية ودور العبادة في التوعية الصحيحة بالعقيدة، والاكتفاء بتلقي النصوص الدينية دون التعمق، مما يفضي إلى استغلال بعض الشباب الذين يفتقرون للثقافة الدينية، في تحبيب أعمال التطرف والعنف لديهم بوصفها نوعاً من إثبات قوة العقيدة، والدفاع عنها ونشرها لتكون الأقوى في العالم.

7 - وجود أجنادات خارجية ومؤسسات ودوائر مشبوهة تكن العداء للعرب والمسلمين، تقوم بإغراء بعض الشباب وضمهم لبعض الجمعيات والأندية، أو منتديات الأنترنت وشبكة التواصل الاجتماعي، لحثهم على التمرد على قيمهم ومعتقداتهم وإبعادهم عن دينهم بوسائل شتى، واستمالة البعض الآخر لتنفيذ مآرب معينة لعل أيسرها التطرف والعنف وأعمال الإرهاب.

ثانياً: النظريات النفسية التي تفسر التطرف عند الجماعات الدينية المتطرفة:

1 - النظرية المعرفية Cognitive Theory

يرى العالم اورنيك، أن الانسان عندما يفكر بطريقة غير عقلانية أو غير منطقية، نتيجة لخلل في التفكير أو في إدراك الواقع فإن ذلك ينعكس في سلوكه، وهذا ما يفسر سلوك المتطرف أو الجماعات المتطرفة⁽⁴⁾، لأن غياب التفكير المنطقي والعقلاني لدى المتطرفين، يؤدي إلى تفسيرهم لما يحدث حولهم أن هم وجه ضدهم ممن يظنونهم أعداءهم، فهم لا

تحبيب أعمال التطرف والعنف لديهم بوصفها نوعاً من إثبات قوة العقيدة، والدفاع عنها ونشره التكون الأقوى في العالم

(4) بيك ارون، العلاج المعرفي والاضطرابات انفعالية، ترجمة: عادل مصطفى، مراجعة فسان يعقوب، 2000، دار النهضة العرب، ص1.

ينظرون إلى ما يحدث بواقعية، بل ينظرون إليه بصورة خيالية إذ يعيدون تشكيل الأحداث لتوافق الصورة الخيالية الموجودة في أذهانهم، لذلك فإن خيالهم يصور لهم أن الناس صنفين منهم: الخيرون وهم الذين يوافقونهم في الرأي وفي التفكير والسلوك وما إلى ذلك، وأشرار وهم فئة الأعداء الذين لا ينسجمون مع تطلعاتهم، ويعتقد المتطرفون دائماً أنهم الضحية وما يقومون به من اعمال وتصرفات هي دفاع عن الذات وعن قيم العدل والحق، وانهم لا يجيدون لغة الحوار مع الآخر، فهم لا يسمعون إلا صوتهم ولا يؤمنون إلا برأيهم، الذي هو نتاج خاطئ ومسلمات عقلية ثابتة وراسخة عندهم، وما هذه إلا مشكلات نفسية ترجع بالدرجة الأولى إلى أن الفرد يقوم بتحريف الواقع وليّ الحقائق على مقدمات مغلوطة وافتراسات خاطئة، وتنشأ هذه الأوهام عن موقف خاطئ حدث في إحدى مراحل النمو المعرفي⁽⁵⁾.

(5) عبد الحميد الحارث، الإرهاب والسلوك الإرهابي في العراق، مجلة دراسات عراقية، العدد (6)، بغداد، 2006، ص20.

ومن الجدير ذكره هنا أن الفرق الجوهرية بين الاستجابات النفسية الخاطئة والاستجابات السوية، هو أن المحتوى الفكري في حالة الاستجابات الخاطئة ينطوي على تحريف أو تشويه دائم لأحد المواقف الواقعية، لكونها تخضع إلى حد كبير لعوامل داخلية (سيكولوجية)، من شأنها أن تفسد عملية تقييم الواقع وتربكها، على حين أن الاستجابات الانفعالية السوية تقوم على تقدير معقول للموقف، ويرتكز المحتوى الفكري له على فكرة الفقد، إي وقوع فقدان كبير فيحس الشخص أنه قد خسر شيئاً يراه ضرورياً لسعادته أو طمأنينته ويتوقع من أي مشروع مهم نتائج سلبية، وميل قاهر إلى الهروب من هذه الحالة غير المحتملة عن طريق الانتحار لإدراكها لخاطئ بعدم جدوى الحياة⁽⁶⁾.

(6) بيكارون، مصدر سابق، ص118.

2 - النظرية النفسية الاجتماعية Psycho - Social Theory

ويرى الفريد ادلر صاحب المدرسة الفردية Individual psychology، أن السلوك الأنساني يمكن تفسيره بأنه محاولة للسيطرة على الآخر، والدافع إلى ذلك هو الرغبة في تحرير نفسه من الشعور بالنقص سواء كان هذا النقص جسمياً أو عقلياً فعلياً أو متخيلاً، وينشأ الشعور بالنقص نتيجة لوجود عيب أو ضعف بدني يجعل الطفل عاجزاً عن مسايرة زملائه من الأطفال، وقد ينشأ الشعور بالنقص أيضاً عن بعض المتاعب والصعوبات عند الطفل، كإساءة الوالدين له وحرمانه من الحب والعطف والتشجيع⁽⁷⁾.

(7) Lindezy, G, Thompson, R.& Spring, B. 1988, Psychology, Newyork, Worth publishing.inc

**وتكون مشاعر الدونية تمزيقية
إذ يندفع الشخص وراء تأسيس
نوع ما من التفوق على
الآخرين**

وربط ادلر شذوذ تطور الشخصية ووظيفتها بالأوجه المختلفة لأنه موجه حول الإنسان، إذ يعتقد أن البعض يعاني من الدونية في سعيه لتحسين نفسه وظروفه، وتنتج اضطرابات الشخصية من الإحساس العميق بالدونية والأشكال المبالغ فيها، للسعي وراء التفوق وربما يطور الشخص التعويضات والتعويضات المفرطة غير الصحيحة.

وتكون مشاعر الدونية تمزيقية إذ يندفع الشخص وراء تأسيس نوع ما من التفوق على الآخرين، واحتمال أن يكون السلوك الناتج سيئاً لتكيف جداً ومنحرفاً ذاتياً، ويحدث الشذوذ عندما يسعى الفرد إلى إثبات تفوقه عبثاً بدلاً من قبول مركز هو يعزى السعي اليائس وراء التفوق إلى عدم الاستعداد ليكون عضواً اعتيادياً في الجماعة⁽⁸⁾.

(8) Freedman, J. L& Sears, (8)
Social psychology, 2rd ed NEW
YORK, Prentice-hill,p99.

وان الأشخاص الذين يعانون اضطراباً في صحتهم النفسية تكون أهدافهم لا شعورية، ولا يعرفون البدائل المتاحة أمامهم عندما يواجهون مواقف الحياة المختلفة، بمعنى أن الفرق بين الطبيعي والعصابي هو فرق في كيفية رسم الأهداف، حيث يضع الطبيعي أهدافاً واقعية يسعى إلى تحقيقها، على حين يكون المريض نفسياً قد وضع أهدافاً خيالية يصعب الوصول إليها.

**أن النتيجة الحتمية لهذا النوع
من المعاملة أن يصبح هؤلاء
قلقين بدرجة عالية ويشعرون
بعدم الأمان فيبدؤون بتطوير
أدوات حماية لمسيرة مشاعر
النقص لديهم**

وأنه ولاء الاشخاص وفقاً (لادلر) هم أولئك الذين يملكون أساليب حياتية خاطئة، كانوا قد اكتسبوها من الاتصال بوالديهم، الذين إما أن يكونوا قد دللوهم أو أهملوهم أو رفضوهم في طفولتهم المبكرة، ففي كثير من الحالات كان هؤلاء الآباء قد أظهروا أنماطاً سلوكية شاذة أو غريبة الأطوار، بعضها قد يكون مزيجاً من الدلال والرفض، ويعتقد ادلر أن النتيجة الحتمية لهذا النوع من المعاملة أن يصبح هؤلاء قلقين بدرجة عالية ويشعرون بعدم الأمان فيبدؤون بتطوير أدوات حماية لمسيرة مشاعر النقص لديهم، وغالباً ما يطورون الكفاح من أجل التفوق لتعويض مشاعر النقص، وهكذا يبدأ الفرد العصابي يفكر وبطريقة متكبرة ومتعجرفة بأنه متفوق على الآخرين، ويعمل بطريقة متساقطة مع اعتقاده هذا، وربما يكافح من أجل أن يكون كاملاً ويصغر من شأن الآخرين، ويكون إدراكه للآخرين أنهم منافسون له ويجب أن يهزمهم بأية وسيلة منتهجاً أسلوباً مخالفاً قد يصل حد العنف والإرهاب⁽⁹⁾.

(9) كامل علوان الزبيدي، الصحة النفسية في وجهة نظر علماء النفس، ط1، دمشق، 2009، دار علاء الدين للنشر والطباعة، ص47.

3 - نظرية الصراع الواقعي بين المجموعات Realistic group - conflict Theory

تؤكد هذه النظرية العوامل الاجتماعية والبيئية الثقافية، وعلى دور معايير الجماعة في نشأة الاتجاهات السلبية بين الأفراد، وهي تهتم بالجماعات وسلوك الأفراد من إذ أنهم أعضاء فيها، وتقوم هذه النظرية على افتراض أنه حينما يحدث تنافس بين جماعتين من الجماعات نتيجة عوامل خارجية، يؤدي ذلك إلى حدوث تقويمات سلبية متبادلة بينهما، وأن حدوث الصراع والتنافس بين الجماعات الداخلية والجماعات الخارجية، أو أي جماعتين، يؤدي إلى بعد اجتماعي بينهما وتطرف في الاستجابات. الأمر الذي يؤدي إلى تطرف أو تعصب نتيجة الصراع الواقعي بين الجماعات في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويمكن الاعتماد على هذه النظرية في تفسير الكثير من حالات التطرف بسبب الاتجاهات السلبية ومشاعر العداوة بين القوميات المتعددة والديانات المتعددة والطوائف المتعددة في الوطن الواحد⁽¹⁰⁾، وقد استخدمت بريطانيا وبعض الدول الاستعمارية الكبرى شعارها المعروف (فرق تسد)، فأخذ عمالؤها يغذون الفرقة بين الهندوس والمسلمين في بلاد الهند وبين العرب والأكراد والأتراك في بلاد المسلمين، وبين المسلمين في الأمة الواحدة، وبذلك يتحول مجرى الصراع من مواجهة العدو الحقيقي في الخارج إلى مواجهة خصوم داخليين وسط إطار من الحقد والكراهية.

Sheriff, M. SHERIF: c. (10) social psychology. Harper and publisher newyork. P. 88

1 - نظرية الشخصية التسلطية Authoritarian Personality Theory

تؤكد نظرية الشخصية التسلطية التي وضعها أدورنو⁽¹¹⁾، أن اتجاهات الفرد هي نزعات رئيسة في تنظيم الشخصية، معبرة عن الحاجات النفسية اللاشعورية التي تضم الرغبات والاندفاعات العاطفية في ضوء افتراض، أن معتقدات الشخص السياسية والاقتصادية والاجتماعية غالباً ما تشكل نمطاً واسعاً ومتناسكاً، يعبر عن النزعات الأساسية العميقة في شخصيته مشتملة على مجموعة مظاهر معرفية وانفعالية مترابطة بعضها مع بعض مؤلفة ما يسمى بالشخصية التسلطية Authoritarian Personality، والتي تنمو عن طريق أساليب التنشئة التي تنماز بالخشونة والانضباط المتشدد في العائلة، ومن بين ما يتميز به الشخص التسلطي هو قمع مشاعر العداوة والمقيت المتكون عنده نحو والديه، ورمز السلطة في جماعته الداخلية، وإزاحتها نحو

Adorno, T.w. et, al the (11) authoritarian personality harper row, 1950, Newyork.

الناس الآخرين، وعلى وجه الخصوص الذين يظهرون اختلافاً في قيم وأنماط الحياة ضمن جماعته، مما يعطيه مسوغاً للنظر إليهم بوصفهم خارجين عن القيم التقليدية وهو ما يفسر التطرف في الرأي والتفكير والسلوك.

ومن بين ما يتميز به الشخص التسلطي هو قمع مشاعر العدا والمقبت

وعلى هذا الأساس يقوم بنسج وترويج العديد من الشائعات العدائية ضدهم سواء كانت شائعات الحقد والكراهية، أو الشائعات التي تهدف إلى تعميق الفرقة والانفصال، داخل الجماعة الواحدة أو بين جماعتين في المجتمع الواحد أو تلك الشائعات التي تصاغ على شكل نكات بذينة هدفها الظاهر اللهو والتسلية، لكنها ذات أهداف خطيرة وخبيثة، إذ إن انتشار الشائعة في هذه الظروف يؤدي وظيفتين: أولهما تفسير مظاهر التوتر العاطفي التي يحسها الأفراد، والآخرى التخفيف من هذه المظاهر⁽¹²⁾.

(12) نصر صلاح، الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، ط1، ج1، دار القاهرة للطباعة والنشر، ص365

2 - نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning Theory

يعتقد أصحاب هذه النظرية أمثال بانديروا ووالترز أن الأفراد يستطيعون تعلم السلوك لمجرد ملاحظة سلوك الآخرين، وهؤلاء يعدون من الناحية التقنية نماذج (Models) واكتساب الاستجابات بهذه الملاحظة يسمى الاقتداء بالنموذج (Modeling) والناس يقلدون سلوك الآخرين ولا سيما إذا كانوا أقوياء أو أشخاصاً مهمين، وهذا التقليدي تسعل يشمل سلوكيات الوالدين ويعتد بعد ذلك ليصبح اتجاهاً وبهذه الطريقة، يتعلم الطفل قيم والديه واتجاهاتهم حتى لو لم تكن هناك مكافئة، والتقليد لا يتحدد بعلاقة الطفل بوالديه فقط بل تتسع حلقة المعارف والمؤثرات إلى المدرسة والأصدقاء، فالتعزيز والاقتان والنمذجة هي ميكانيزم أساسي يتم به اكتساب الاتجاهات فيكتسب الفرد السلوك التطرفي عن طريق التعلم من الآخرين، فإذا كان الأب أو القدوة متطرفاً فإن الابن أكثر عرضة للتأثر واكتساب هذا السلوك، ولا سيما إذا كان هذا السلوك التطرفي يقابل بالاستحسان، وليس الاستهجان، ويجب ألا ننسى هنا دور العبادة في المساجد والكنائس⁽¹³⁾.

Bandura & Walters, R. (13) Aggerssion. A Social learning analysis, Newyork: prentice-hall.inc, p.17.

3 - نظرية انساق المعتقدات Beliefs System Theory

يرى روكيش صاحب هذه النظرية أن اتجاهات الافراد تجاه جماعة أخرى تتحدد على وفق التماثل أو التطابق في المعتقدات، وبناء على فرضية أن هنا

كعلاقة اتساقية بين التشابه في الاتجاهات والوجدانية بين الأفراد، فيبحث الأفراد وينجذبون نحو من يشبهونهم ويميلون إلى النفور من لا يشبهونهم.

وتقوم نظرية روكيش عن انساق المعتقدات على أساس الدوغماتية (مفهوم الجمود)، التي تتمثل في النظرة المتشددة للحياة وعدم التسامح مع ذوي الاعتقادات المعارضة، بصرف النظر عن مواقعهم الاجتماعية أو اتجاهاتهم السياسية أو ولاءاتهم الدينية وهذا المفهوم المرتبط بمفهوم تفتح الذهن وانغلاقه، والذي يمثل جوهره أنساق المعتقدات، فيرى روكيش أن المعتقدات والاتجاهات والقيم تنتظم جميعاً في إطار نسق عام هو نسق المعتقدات الكلي، الذي يتسم بالتفاعل والارتباط الوظيفي بين عناصره وإجزائه.

وهناك ثلاثة محاور رئيسة متفاعلة يتكون منها نسق المعتقدات، يرتبط أولها بالمعرفة والثاني التعصب، والثالث السلطة، كما يرى أيضاً أن درجة التسامح مع الآخرين تمثل جانباً واحداً من نسق المعتقدات، وأن الأسلوب الذي تتبعه في قبول أو رفض فكرهم عينه، يرتبط بالمكونات الأخرى لنسق المعتقد، ومن هنا يمكن استنتاج توجه الفرد نحو أيّ إنسان آخر من طريقه تعامله مع الفكر المغاير لفكره هو.

وبالنسبة إلى العامل الثاني لنسق المعتقدات (التعصب)، اقترح روكيش أن الأفراد ذوي التعصب لديهم تفكير منغلق، يجعلهم يميلون إلى رؤية الأشياء بشكل جامد، ولا يكون منفتحاً للطرائق الجديدة في النظر إلى الأشياء أو المعلومات الجديدة وهو ذو تفكير جامد منغلق الذهن، لا يستطيع أن يتقبل أفكار غيره أو يتفهمها، وهذا ما يفسر سلوك الجماعات

أن الأفراد ذوي التعصب لديهم تفكير منغلق، يجعلهم يميلون إلى رؤية الأشياء بشكل جامد، ولا يكون منفتحاً للطرائق الجديدة في النظر إلى الأشياء أو المعلومات الجديدة وهو ذو تفكير جامد منغلق الذهن، لا يستطيع أن يتقبل أفكار غيره أو يتفهمها

المتطرفة في العالم اليوم، في حين الشخص أن المنفتح الذهن يمكنه أن يفعل ذلك على البرغم من اختلاف مضمونها مع أفكاره، وأن انساق المعتقدات هذه تمتد عبر متصل ثنائي القطب، يقع الأشخاص منغلقو الذهن في إحدى قطبيه، والأشخاص متفتحو الذهن في قطبه الآخر، وبين الفئتين المتطرفتين تقع الفئة الثالثة من الأشخاص في هذه المتصل.